تنظيم الدولة والمقاتلون الأجانب في سورية

عبد الله زيزان
باحث سياسي

ملخص

تتناول الدراسة موضوعا من أحد المواضيع المؤثرة في مسار الثورة السورية وهو ظهور تنظيم الدولة الإسلامية الذي ظهر بشكل واضح بعد مرور عام على الثورة السورية التي طالبت بالحرية والانعتاق من ظلم النظام في دمشق.

ويرى الباحث بأن النظام حاول استخدام ورقة التطرف والتشدد من أجل تشويه صورة الثورة بعد أن عجز عن مواجهتها بشكلها السلمي فقام بوصف الثوار بأنهم ارهابيون وقام بإطلاق سراح العشرات من المتشددين من داخل سجونه مما أدى إلى تعزيز الدور المتطرف في الساحة السورية.

وقد ساهم هؤلاء في تشكيل وتقوية تنظيم الدولة بشكل كبير، حيث تواصلوا مع زملائهم في بلدان أخرى وتحديدا في العراق وقاموا بإعلان الخلافة في كل من سوريا والعراق وتشير الورقة إلى أن إعلان الخلافة قد ساهم بشكل واضح في إضعاف الثورة السورية وتشتيتها مما قدم خدمات للنظام . حيث ساهمت الدعوات التي قام بها التنظيم للانضمام إلى صفوفه في شق صفوف الثوار وتوفير الذريعة التي كانت تعتمد عليها رواية النظام بأن الثوار ليسوا إلا إرهابيين.

تتطرق الورقة للأصل التاريخي لتنظيم الدولة وظروف تشكيل جبهة النصرة والمقاتلين الاجانب في سوريا وتخلص الورقة بأن بالرغم من الأثر السلبي لدخول داعش للساحة السورية واستخدام النظام لها إلا أن الثوار نجحوا في امتصاص الأمر وتحويل بعض نقاط الضعف إلى نقاط قوة مستندين على أعادة تنظيم صفوفهم و رفض الحاضن الشعبي للفكر المتشدد ويرى الباحث بأن داعش لا مستقبل لها في الأماكن التي تسيطر عليها وأن فرض استمرارها هناك معدومة.

انطلقت الثورة السورية في منتصف آذار 2011 طالبة الحرية والانعتاق من الظلم الذي يتعرض له الشعب السوري منذ وصول النظام الحالي إلى سدة الحكم، ابتداءً من انقلاب حزب البعث في 8 آذار 1963،

رؤية تركية
2015 - 14
163 - 147

حتى بدايات الثورة السورية السلمية، التي سرعان ما تحولت إلى ثورة مسلحة تحت ضغط النظام، الذي عمد منذ انطلاق أول مظاهرة ضده إلى مواجهة الشعب بالرصاص والقتل والتعذيب...

وقد حاول النظام السوري تشويه الثورة منذ بداياتها، باتهامها بالإرهاب، ووصف الثوار بأنهم ليسوا إلا إسلاميين متطرفين، يواجهون الدولة، ويحاولون فرض أجنداتهم المتطرفة على البلاد، إلا أنّ إخفاق النظام في تسويق دعايته تلك، من خلال استخدام الثوار لوسائل التواصل الحديثة التي دحضت ادعاءاته، دفعه للتحول إلى خطوات عملية لتعزيز دور المتشددين الإسلاميين وإرباك صفوف الثوار، فأفرج عن مئات المعتقلين لديه ممن يوصفون بحَملة الفكر المتشدد، ودسّ فيهم الكثير من عملائه، ليدعم بذلك تنظيم "الدولة الإسلامية في العراق والشام" وهو ما أثبتته صحيفة دير شبيغل الألمانية من خلال وثائق حصلت عليها مؤخرًا وترجمتها صحيفة المستقبل في 20 من نيسان 2015...

وقد تمكّن هؤلاء المفرج عنهم من التواصل مع "إخوة المنهج" في العراق، والاستفادة من خبراتهم وأموالهم وسلاحهم ورجالهم بادئ الأمر، فشكّلوا ما عرف بـ "جبهة النصرة"، وأمّروا على أنفسهم "أبا محمد الجولاني" (الذي أفرج عنه النظام السوري بعد شهر من اندلاع الثورة)، واستمر الوضع كذلك حتى فكّ الجولاني ارتباطه بتنظيم الدولة، وبايع زعيم تنظيم القاعدة "أيمن الظواهري" في العاشر من نيسان عام 2013...

فكان هذا التاريخ فارقًا في العمل الثوري في البلاد، حيث قام زعيم تنظيم "الدولة" على إثر ذلك، بالدخول إلى سورية، وطلب من أتباع جبهة النصرة الانشقاق عنها والالتحاق بالتنظيم الجديد، وهو ما لاقى قبولًا عند شريحة واسعة من أتباع النصرة، الذين وجدوا التنظيم الجديد يلبّي رغباتهم من حيث الفكر ومن حيث الأداء،

ومن جهة أخرى كانت هناك شريحة تدين بالبيعة أساسًا لتنظيم البغدادي، لذا سرعان ما انشقت هاتان الفئتان عن جبهة النصرة والتحقتا بتنظيم "الدولة".

وقد كان دخول التنظيم إلى الساحة السورية سببًا مهمًّا لتراجع الثورة السورية، فقد أثّر فيها سلبًا، وقد أعطى النظام السوري الحجة التي كان يبحث عنها منذ بداية الثورة، فهو الآن وباعتراف التنظيمات نفسها يحارب الإرهاب ولا يواجه ثورة شعبية، وهو الرأي الذي تبناه الكثير من دول العالم، حتى ممن كان يرفع شعار الصداقة للشعب السوري...

وسنتناول في هذا البحث تاريخ نشوء تنظيم الدولة، وامتداداته الفكرية المرتبطة أساسًا بتنظيم القاعدة، مرورًا بالانشقاق عن هذا التنظيم وتبنيه فكرًا أكثر تطرفًا، ومن ثم انتشاره وتوسعه من العراق وصولًا إلى سورية، وكيف انتقل بسرعة إلى تكفير الجيش الحر، والشروع في قتاله بحجة الردة والعمالة، وهو ما كان له تأثير مباشر في سير الثورة السورية، وتشتيت جهود الثوار في عملهم ضد النظام السوري، فضلًا عن تشويه الثورة، وإظهارها بمظهر التطرف والإرهاب.

الأصل التاريخي لتنظيم الدولة

لا يمكن لأيّ مهتمّ بشأن الجماعات الجهادية في سورية فهم الواقع الذي تعيشه تلك الجماعات والمستقبل القريب والبعيد لها من دون أن يدرس تاريخ تلك الجماعات، والظروف التي أدّت إلى نشوئها وتطورها، فكريًّا وعسكريًّا، حتى وصلت إلى الوضع الذي نعيشه اليوم، متمثلًا في تنظيم الدولة، أو ما بات يعرف إعلاميًّا باسم داعش، حيث إنّ اجتزاء صورة الوضع السوري من الصورة الكلية لهذه الجماعات وامتداداتها الفكرية، يعطي انطباعات منقوصة وغير مفهومة لحقيقة الأمور في البلاد...

فقد مرّ تنظيم الدولة بمراحل تطور لا يمكن لأي متابع إنكارها، كما لا يمكن لأفراد التنظيم اليوم إنكار جذورهم الأساسية، ذلك أنّ الوقائع على الأرض، والتسلسل التاريخي للأحداث يثبت نشأة تلك الجماعة، ويؤكد ارتباطاتها السابقة مع تنظيم القاعدة، الذي يعدّ من أوائل التنظيمات الجهادية التي أثبتت وجودها على الأرض، ولاسيّما الفترة التي كان فيها مؤسسها أسامة بن لادن على رأس هذا التنظيم...

فإذا كان تنظيم القاعدة هو العباءة التي خرج منها تنظيم داعش فإنّ هذا التنظيم مرّ بعدة مراحل تطوّر وصولًا إلى شكله الحالي، وكان كل مرحلة تمتاز باسم خاص لهذا التنظيم، وغالبًا ما كانت ترافقه تغيرات عدة في بنية التنظيم وهيكليته ، فضلًا عن التغيرات في الفكر الذي يحمله، ومدى التشدد الذي يتبناه، ويمكن تلخيص مراحل تطور تنظيم الدولة بالمراحل الآتية:

"تنظيم القاعدة"، "جماعة التوحيد والجهاد"، "تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين"، "دولة العراق الإسلامية"، "الدولة الإسلامية في العراق والشام"،

"دولة الخلافة الإسلامية"، وسنحاول المرور سريعًا على كل مرحلة من هذه المراحل...

تنظيم القاعدة:

لا يُعرف تمامًا التاريخ الدقيق لنشأة هذا التنظيم؛ نظرًا لسريته في بداية الأمر، إلا أنّ التاريخ ينحصر بين عامي 1987 و1989، وهناك من يؤكد أنّ نشأته كانت تمامًا في 11 آب من عام 1988، وذلك في اجتماع ضمّ عددًا من كبار قادة الجهاد الإسلامي المصري، أبرزهم أيمن الظواهري وسيد إمام الشريف، بالإضافة إلى كل من عبد الله عزام وأسامة بن لادن، حيث اتفقوا على الاستفادة مما يملكه بن لادن من أموال مع خبرة منظمة الجهاد الإسلامي، وذلك لمواصلة الجهاد في مكان آخر بعد أن انسحب السوفييت من أفغانستان...

لذلك تعد نشأة القاعدة قائمة على أنقاض "المجاهدين" الذين حاربوا الوجود السوفيتي في ثمانينيات القرن الماضي بأفغانستان، وهو ما جعل بعض المحللين يؤكد أنّ من أبرز الجهات الداعمة لهذا التنظيم وكالة الاستخبارات الأميركية، التي كانت لها مصلحة في تدمير الاتحاد السوفيتي، وإضعافه من خلال البوابة الأفغانية...

ولكن سرعان ما تبنى التنظيم فكرة الجهاد ضد "الحكومات الكافرة"، وتحرير بلاد المسلمين من الوجود الأجنبي أيًّا كان، وهو ما دعا الولايات المتحدة وأغلب الدول الغربية إلى تصنيفه لاحقًا على أنه أبرز تنظيم إرهابي عالمي.

إلا أنّ انحصار الوجود الفعلي للتنظيم في أفغانستان أضعف من قدراته على المناورة، وتحقيق أهدافه في محاربة "الحكومات الكافرة" والولايات المتحدة الأمريكية التي يعدّها التنظيم رأس الحربة في محاربة المسلمين، فكانت عملياته موسمية، وذات تأثير محدود، حتى الوصول إلى أحداث أيلول (سبتمبر) من عام 2001 التي تبنّاها التنظيم، فبات الحدث تاريخًا فارقًا لهذه الجماعة...

إذ كان من نتائج أحداث سبتمبر احتلال العراق، وهنا بدأ تاريخ جديد لهذا التنظيم خصوصًا، ولحملة الفكر الجهادي عمومًا، حتى بات العراق أرضًا خصبةً للجهاد، وتحرير ذلك البلد المسلم من "أمريكا"، مما سمح للتنظيم بالحضور هناك لكن من خلال جهاديين جدد بايعوه عن بُعد، وكانوا يعملون حينها باسم "جماعة التوحيد والجهاد".

جماعة التوحيد والجهاد

سقطت بغداد بيد أمريكا وحلفائها في نيسان من عام 2003، وهو ما شكل صدمة كبيرة لشريحة واسعة من المسلمين حول العالم، الذين شعروا بأنّ زمن الاحتلال المباشر قد عاد على يد الرئيس الأمريكي حينها جورج بوش الابن، وقد تنوعت ردود فعل المسلمين على هذا الحدث التاريخي، لكن أبرز الردود هو القيام بعمل عسكري ضد القوات الغازية، وهو ما دعا مجموعة من الجهاديين التأسيس لعمل مسلح بعد عام من الاحتلال، أي في نيسان من عام 2004، وقد سمي التنظيم حينها "جماعة التوحيد والجهاد"..

تزعّم الأردني أحمد الخلايلة، المعروف بـ"أبي مصعب الزرقاوي" جماعة التوحيد والجهاد، وقد استهدفت الجماعة قوات التحالف عن طريق تفجير السيارات المفخخة، وبما يطلق عليه عندهم اسم "الاستشهاديين"، واعتمدوا قتل الرهائن بقطع رؤوسهم، في محاولة للضغط على الدول والشركات الأجنبية لمغادرة العراق، ودفع العراقيين للتوقف عن السير في ركاب الولايات المتحدة والحكومة العراقية، وجَذب المزيد من الكوادر إلى صفوفها، وذلك وفقًا لمعلومات ووثائق "المركز الوطني لمكافحة الإرهاب في أميركا".

وسرعان ما بايع الزرقاوي "أسامة بن لادن" زعيم تنظيم القاعدة في أفغانستان، ليتحول اسم الجماعة إلى "تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين".

تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين

بعد أن بايع أبو مصعب الزرقاوي أسامة بن لادن تحوّل اسم جماعة التوحيد والجهاد إلى تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين، إلا أنّ التنظيم الجديد لم يشهد أي تغيرات جذرية عن التنظيم السابق بعد تغيير اسمه، إذ بقي الزرقاوي هو زعيم التنظيم الجديد، واستمر النهج الذي عمل عليه التنظيم منذ تأسيسه عام 2004، إلى أن تمكنت القوات الأمريكية من استهداف الزرقاوي بغارة جوية على المنزل الذي كان فيه عام 2006...

وقد تولى "أبو حمزة المهاجر" والمكنى أيضًا بـ"أبي أيوب المصري" زعامة التنظيم بعد مقتل الزرقاوي، إلا أنّه وفي العام نفسه عمد إلى تغيير اسم التنظيم ليصبح "دولة العراق الإسلامية".

دولة العراق الإسلامية

بعد مقتل الزرقاوي في شهر حزيران من عام 2006 انتُخِب "أبو حمزة المهاجر" زعيمًا للتنظيم في العراق، وفي العام نفسه، وتحديدًا في شهر تشرين الأول شُكِّل تنظيم عسكري يختصر كل التشكيلات الأصولية المنتشرة في الساحة العراقية، تحت مسمّى "دولة العراق الإسلامية"، واختير "أبو عمر البغدادي" زعيمًا له.

بعد أن بايع أبو مصعب الزرقاوي أسامة بن لادن تحوّل اسم جماعة التوحيد والجهاد إلى تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين، إلا أنّ التنظيم الجديد لم يشهد أي تغيرات جذرية عن التنظيم السابق بعد تغيير اسمه، إذ بقي الزرقاوي هو زعيم التنظيم الجديد

واستمر التنظيم الجديد بالعمل تحت إمرة أبي عمر البغدادي زعيمًا وأبي حمزة المهاجر وزيرًا للحرب، حتى تمكنت القوات الأمريكية من قتلهما معًا، ففي 19 نيسان من عام 2010م، قامت القوات الأمريكية بتنفيذ عملية عسكرية في منطقة الثرثار، استهدفت فيها الشخصيتين البارزتين في التنظيم، وذلك بعد اشتباكات عنيفة بين الجانبين واستدعاء الطائرات، حيث قصف المنزل الذي كانا فيه ليقتلا معًا، واعترف التنظيم بعد أسبوع واحد في بيان له على الإنترنت بمقتلهما، وبعد قرابة عشرة أيام انعقد مجلس شورى الدولة

تشكلت جبهة النصرة أواخر عام 2011 مع بداية العمل المسلح للثورة السورية، وقد تزعمها منذ ذلك الحين "أبو محمد الجولاني" الذي كان في سجون النظام السوري حتى بداية الثورة السورية في آذار من عام 2011، حيث أطلق سراح الجولاني بالعفو الرئاسي الأول في شهر نيسان من العام نفسه، أي بعيد انطلاق الثورة بشهر واحد فقط

الإسلامية ليختار "أبا بكر البغدادي" خليفة لأبي عمر البغدادي.

وبعد أقل من عام اندلعت ثورات الربيع العربي، ولاسيّما في سورية، وهذا الحدث فتح شهية التنظيم للتمدد في ذلك البلد، ولاسيّما بعد أن خسر النظام السوري مساحات واسعة من البلاد، وباتت تلك المساحات أرضًا خصبة لاستقطاب "الجهاديين"، وهو ما جعل تنظيم الدولة الإسلامية في العراق ينظر إلى تلك البقعة فرصة لاستعادة زمام المبادرة في المنطقة، بعد فترة ركود طويلة، انكفأ فيها التنظيم على نفسه، فكان يختبئ في صحارى العراق، بعد فقدانه للحاضنة الشعبية هناك، وبعد استنزافه من خلال الصحوات التي حاربته على مدى السنوات الخمس الأخيرة قبل الربيع العربي، فكان دخوله إلى سورية مدخلًا لإعلان "الدولة الإسلامية في العراق والشام".

الدولة الإسلامية في العراق والشام

تعد هذه المرحلة من أهم مراحل تطور هذا التنظيم، حيث شهد تمددًا واسعًا على مساحات جغرافية كبيرة، في الوقت ذاته بات التنظيم مادة إعلامية دسمة لمعظم القنوات الإخبارية في العالم، لأنّ التنظيم في هذه المرحلة بدأ أثره الواضح يُلمس في كلٍّ من العراق وسورية، لذا سنحاول التركيز على هذه المرحلة، والظروف التي رافقت تطور التنظيم التي أدت إلى زيادة قوته إلى الحالة التي نشهدها في هذه الأيام...

وعند الحديث عن "دولة العراق والشام" لا بد ابتداء من الحديث المطوّل عن تشكيل جبهة النصرة، والظروف التي رافقت هذا التشكيل، وصولًا إلى الخلاف الذي وقع بين الجبهة والدولة، والذي بموجبه تطور تنظيم الدولة إلى الصورة الجديدة له، بحيث دخل التنظيم بكامل قوته إلى سورية، ليشكل ما يسمى "الدولة الإسلامية في العراق والشام"...

ظروف تشكيل جبهة النصرة

تشكلت جبهة النصرة أواخر عام 2011 مع بداية العمل المسلح للثورة السورية، وقد تزعمها منذ ذلك الحين "أبو محمد الجولاني" الذي كان في سجون النظام السوري حتى بداية الثورة السورية في آذار من عام 2011، حيث أطلق سراح الجولاني بالعفو الرئاسي الأول في شهر نيسان من العام نفسه، أي بعيد انطلاق الثورة بشهر واحد فقط، وهو ما يضع علامات استفهام كبيرة حول مخطط النظام من وراء إطلاق سراح مجموعات من السجناء المحسوبين على التيار السلفي الجهادي.

وربما يستند الكثير من المتابعين للشأن السوري في رواياتهم التي يتحدثون فيها عن

دعم النظام السوري للجماعات المتطرفة إلى هذه الحادثة، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الشواهد التي يرون فيها دعماً خفيًّا تتلقاه بعض الجماعات المتطرفة من النظام، ولسنا بصدد سردها في هذا الجزء من البحث.

وبالعودة إلى ما بعد الإفراج عن الجولاني، توجّه الأخير مباشرة إلى العراق، وسرعان ما انضم إلى صفوف تنظيم "الدولة الإسلامية في العراق" بزعامة أبي بكر البغدادي، ولم يتردد التنظيم حينها من توليته منصبًا مهمًّا، فكان شرعيًّا للأمنيين في محافظة نينوى، ويبدو أنّ العلاقة تعززت بين الجولاني والبغدادي في تلك الفترة ، في الوقت الذي كان يبحث فيه الأخير عن قيادي يعمل على تشكيل فرع للتنظيم في سورية، فكان الجولاني من أبرز المرشحين لهذا المنصب...

وبعد أن اختار البغداديُّ الجولانيَّ اجتمع الاثنان للتباحث في شكل الفرع الجديد في سورية ومناقشة آلية التنفيذ، وكان من أهم التوصيات والشروط أن يكون الجناح الشامي الجديد فرعًا يتبع لتنظيم "الدولة الإسلامية في العراق"، وحلّ أي جماعة إن وجدت بعد هذا التشكيل، ويذكر أنّ من أهم نتائج هذا الاجتماع: أن الجولاني أخذ البيعة من البغدادي، وهي بيعة (على السمع والطاعة في المنشط والمكره).

بعدها انطلق الجولاني من العراق في آب 2011 ليشكل "جبهة النصرة"، ومعه سبعة من كوادر تنظيم "الدولة الإسلامية في العراق"، وقد أُعطي الجولاني نصف المال والسلاح الذي كان يملكه التنظيم، في الوقت الذي كان فيه العمل المسلح في سورية في بداياته، ولم يكن حينها قد اتخذ الطابع العسكري المنظم ضمن كتائب وألوية...

وقد ساعد التسلح المميز لجبهة النصرة، بالإضافة إلى الخبرات القتالية لعناصره، في توسع الجبهة بصورة سريعة ولافتة للنظر، حتى أصبحت الفصيل الأقوى في سوريا، وكانت الجبهة حينها تأخذ البيعة لصالح البغدادي، مما يؤكد للجميع ارتباط الجبهة بتنظيم البغدادي، إلا أنّ الأمر لم يطل، حيث بدأت ملامح الخلاف تظهر بين الطرفين، خاصة بعد أن شعر البغدادي أنّ توسع جبهة النصرة بات على حساب تنظيم الدولة، مما سيشكل تهديدًا حقيقيًّا له، فهو يعتمد أساسًا على المقاتلين الأجانب الذين كانوا يفضلون الذهاب إلى سورية على حساب العراق، بعد أن تراجع العمل "الجهادي" في العراق بشكل ملحوظ...

وقد تسارعت الخلافات الجانبية، وظهر نوع من عدم الانسجام بين البغدادي والجولاني، وسادت حالة من التململ لدى الجولاني وعدم الرضا عن سياسة البغدادي التي تفاقمت في مطلع عام 2013، حين لمست دولة البغدادي كثرة تملص الجولاني من تنفيذ أوامره، وعدم تقديم المساعدة التي تطلبها "الدولة" في العراق، تزامنًا مع الشعور عن نية الجولاني إقامة إمارة بمعزل عن "الدولة".

استمرت الحالة كذلك حتى تدخل بعض الوسطاء بين الطرفين، إلا أنّ الجولاني حسم أمره وأبلغ أحد الوسطاء أنّه عازم على

الانفصال عن "الدولة"، وأن الأمر انتهى، فالجولاني أحكم قبضته على كل ما يجري داخل الجماعة في "النصرة"، وهنا اجتمع مجلس شورى المجاهدين لدولة البغدادي ليفضي الاجتماع إلى قرار الاستعجال بمشروع الدولة في العراق والشام للسيطرة على ما يجري على الأرض.

وهذا ما يفسر الإعلان المفاجئ للبغدادي عن قيام "الدولة الإسلامية في العراق والشام"، وقد رد الجولاني على إعلان البغدادي بأنه لم يُسْتَشر بالأمر، وأعلن بيعته للشيخ أيمن الظواهري، لتبدأ الخلافات بين أنصار الفريقين، وهو ما استدعى تدخلًا مباشرًا من أيمن الظواهري من خلال تسجيل صوتي، بعد أن أدرك أنّه كان سببًا رئيسًا في ذلك الانشقاق، طالبًا من الدولة الإسلامية في العراق العودة إلى العراق، ومن النصرة البقاء في ساحة الشام، وهو ما رفضه البغدادي بتسجيل صوتي مصرًّا على البقاء في سوريا، معلنًا قيام "الدولة الإسلامية في العراق والشام"، وذلك في 9 نيسان عام 2013، وقد اشتهرت اختصارًا باسم "داعش"، واستمرت تلك التسمية حتى تمكنت داعش من السيطرة على الموصل، ومساحات أخرى من العراق حيث تغير الاسم إلى "دولة الخلافة الإسلامية".

دولة الخلافة الإسلامية

بعد سيطرة "داعش" على مناطق واسعة من العراق شملت مدينة الموصل ومعظم محافظة الأنبار غرب العراق، أعلن في 29 حزيران 2014م، عن قيام "دولة الخلافة الإسلامية"، ومبايعة زعيمه أبي بكر البغدادي "خليفة" للمسلمين، وتغيير اسم التنظيم إلى "الدولة الإسلامية" فقط، وتطرق بيان "داعش" إلى "إلغاء الحدود" بين العراق وسورية، ودعا المسلمين إلى الهجرة إلى "دولة الخلافة".

لكن في واقع الأمر لم يلمس أحد تغييرًا جذريًّا لواقع هذا التنظيم أو أدائه أو فكره بعد التغيير الأخير، وربما كان ما يريده التنظيم من تغيير الاسم هو فقط العزف على وتر حساس لدى الشعوب الإسلامية التي تتوق لعودة الخلافة الإسلامية منذ سقوطها عام 1924 على يد مصطفى كمال، وقد تحقق للتنظيم جزء مما أراده، حيث حصل على تعاطف شريحة من المسلمين في العالم، كسبته مزيدًا من المقاتلين الأجانب، اختلفت الإحصائيات حول أعدادهم...

المقاتلون الأجانب في سورية

لا توجد إحصائية دقيقة لأعداد المقاتلين الأجانب في سورية، فأقل التقارير تتحدث عن 5 آلاف مقاتل في سورية وحدها، وصولًا إلى تقارير تتحدث عن 22 ألف مقاتل، يتوزعون ما بين سورية والعراق، في حين أبلغ خبراء بالأمم المتحدة مجلس الأمن الدولي بأنّ أكثر من 25 ألف مقاتل أجنبي من نحو مئة دولة لهم صلات بالقاعدة و"داعش"، وأنّ سورية والعراق تمثلان "مدرسة دولية رفيعة المستوى للمتشددين".

إلا أنّ معهد "كويليام" البريطاني لمكافحة الإرهاب والتطرف أحصى ما يزيد عن 15

في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا 11002 موزعون على النحو الآتي:					
تونس	السعودية	المغرب	الأردن	لبنان	ليبيا
3000	2500	1500	1500	900	600
مصر	الجزائر	فلسطين	اليمن	السودان	الكويت
360	200	120	110	100	70
قطر	الإمارات	البحرين			
15	15	12			
في أوربا الغربية: 2580 مقاتلاً، موزعون على النحو الآتي:					
فرنسا	بريطانيا	ألمانيا	بلجيكا	هولندا	السويد
700	500	400	300	150	100
إسبانيا	الدنمارك	النمسا	إيطاليا	النروج	إيرلندا
100	100	60	50	50	30
فنلندا	سويسرا				
30	10				
في بقية أوربا والعالم: 2755، موزعون على النحو الآتي:					
روسيا	تركيا	كازاخستان	ألبانيا	كوسوفو	البوسنة
800	400	150	140	120	60
أوكرانيا	باكستان	أستراليا	الصين	كندا	أمريكا
50	330	250	100	100	100
الصومال	إندونيسيا				
70	60				

ألف مقاتل، قام بتوزيعهم بحسب بلدانهم الأصلية، وذلك في تقرير جديد للمعهد مؤلف من 71 صفحة، صدر في تشرين الثاني من عام 2014، وهو من إعداد "إيرين ماري سولتمان" و"تشارلي وينتر"، وحمل عنوان "الدولة الإسلامية: الوجه المتغيّر للجهادية الحديثة"، والذي يتناول جاذبية هذا التنظيم للجهاديين الأجانب، ويقارن بينه وبين تنظيم "القاعدة".

وقد أكّد التقرير أنّ المقاتلين التونسيين يتصدرون قائمة الأجانب الذين يقاتلون في سوريا، مشيرًا إلى أنّ عدد المقاتلين التونسيين تجاوز ثلاثة آلاف، وكان المعهد قد رصد بالأرقام عدد المنضمين إلى "داعش" من كل دول العالم، بناء على معلومات قدّمها مسؤولون غربيون، بالإضافة إلى إجراء مقابلات مع مجموعة من الباحثين في هذا المجال.

وتضمن التقرير، أحدث حصيلة لعدد "المقاتلين" الأجانب الذين يقاتلون حاليًا في سورية والعراق، وجاءت الإحصائيات كالآتي:

1- الشرق الأوسط وشمال إفريقيا: 11002 مقاتل

2- أوربا الغربية: 2580 مقاتلا

3- بقية أوربا والعالم: 2755 مقاتلا

ويتضح من هذا التوزيع أنّ نسبة الأجانب الملتحقين بصفوف التنظيم أعلى من نسبة المقاتلين المحليين، وهو ما أكّده الصحفي الألماني "يورغون تودنهوفر"، الذي زار "دولة الخلافة" وبقي فيها 10 أيام، في شهر كانون الأول من عام 2014، حيث صرّح الصحفي بأن ما يزيد عن 70٪ من المقاتلين في صفوف التنظيم من الأجانب في سورية وحدها، أي ما يزيد عن ثلثي أعداد المقاتلين، وهو ما يفتح الباب حول السؤال الكبير عن جاذبية التنظيم لهؤلاء المقاتلين ودافعيتهم للالتحاق بهم، وكيفية تجنيد التنظيم لهم..

تجنيد المقاتلين الأجانب

يتساءل الكثيرون عن قدرة تنظيم "الدولة" في تجنيد المقاتلين الأجانب حول العالم، وقدرته في إقناع هؤلاء، رغم الجرائم التي يقوم بها، التي لا يحاول إخفاءها؛ بل يوثقها بفيديوهات عالية الجودة، ومخرجة بأساليب حديثة، تظهر عمليات الذبح والحرق والتنكيل بضحاياه، الذين كثيرًا ما يكونون من إسلاميين يعملون في الجيش

الصحفي الألماني "يورغون تودنهوفر": المقاتلون الأجانب لدى داعش لديهم الكثير من الحوافز، إنهم يشعرون بالتمييز في بلدانهم، فقيمتهم الاجتماعية غير عالية... هم يريدون دولة يحترمهم الناس فيها ويقدّرونهم!

السوري الحر، وأحيانًا من المدنيين، بحجج مختلفة...

وقد قدّم الصحفي الألماني "يورغون تودنهوفر" بعض الإجابات عن التساؤلات السابقة، فقد قال تودنهوفر في لقاء خاص معه في برنامج "بلا حدود" على قناة الجزيرة الفضائية في 25 شباط 2015:

"المقاتلون الأجانب لدى داعش لديهم الكثير من الحوافز، إنهم يشعرون بالتمييز في بلدانهم، فقيمتهم الاجتماعية غير عالية... هم يريدون دولة يحترمهم الناس فيها ويقدّرونهم!"

وأضاف، زيادة في وصفهم:

"هناك حماس منقطع النظير لدى محاربي داعش من أنّهم يلعبون دورًا تاريخيًّا مهمًّا.. وهم دائمًا يردّدون عبارة: (نحن الآن نحقق أحلامنا!)، وهم يريدون من الأمريكان المجيء لقتالهم، فإرهابهم -كما يقولون- ما هو إلا ردّ على الحروب الغربية ضدّ الدول

العربية... إنهم يُحاولون ترويع الناس بصورة وحشية، ويتعمّدون بث الرعب في صفوف أعدائهم"...

وحول آليات التنظيم في التجنيد يؤكّد تقرير معهد "كويليام" البريطاني لمكافحة الإرهاب والتطرف في تقريره آنف الذكر- التفوق التكنولوجي الذي تتميز به "داعش" لتجنيد المقاتلين، فقد أصدر برنامجًا خاصًّا به للتواصل بين أعضائه، ويمكن تنزيله من "غوغل ستور"، وذلك قبل كشفه وحذفه من لائحة البرامج التي يمكن تحميلها على الهواتف الذكية، إضافة إلى الدعم الذي يحصل عليه التنظيم من شبكة واسعة من الناشطين على مواقع التواصل الاجتماعي، وهو ما يسمح في لحظات بوصول إصدارات التنظيم إلى أكبر عدد ممكن من متصفحي شبكة الإنترنت، وهو ما يساعده في الترويج لفكره، وإقناع بعض الشباب المتحمسين بمنهجه..

وهذه القدرات العالية للتنظيم في المجال التكنولوجي، إذا ما أضفنا إليها قدراته في المجال العسكري- تجعل الكثير من التساؤلات وعلامات الاستفهام توضع حول هذا التنظيم، حيث امتلكت "داعش" من الخبرات العسكرية والتكنولوجية ما يفوق كل مثيلاتها من الجماعات الجهادية، وهو ما ينسبه بعض المتابعين إلى وجود كوادر من حزب البعث العراقي المنحل، من ضباط ومدنيين يعملون ضمن صفوفهم...

ضباط "بعث العراق" يقودون "داعش"

رغم ما يحمله تنظيم "داعش" من فكر خاص، ينسبه إلى الدين الإسلامي، ليظهر بمظهر التنظيم المتشدّد الذي يطبق أحكام الشريعة بحذافيرها، إلا أنّ واقع التنظيم الذي يجهله الكثير يتناقض تمامًا مع ذلك الفكر، حيث تتواتر المعلومات من عدة جهات -آخرها ما نشرته صحيفة "دير شبيغل" الألمانية، وترجمته صحيفة المستقبل في 20 من نيسان الحالي- تؤكد أنّ من يقود التنظيم، بل وحتى من أسسه، هم ضباط سابقون من حزب البعث العراقي المنحلّ...

وكانت صحيفة "واشنطن بوست" الأمريكية قد كشفت هي الأخرى عن حقيقة "أمير أمراء تنظيم داعش" الذي يقوم باتخاذ القرارات الفعلية، وهو من ضباط الجيش العراقي السابق، وقد أكّدت الصحيفة أنّ جميع قادة "داعش" هم من ضبّاط ذلك الجيش، ويؤثرون سرًّا في التنظيم، وقد روت الصحيفة قصة أحد المقاتلين السوريين، انضمّ إلى تنظيم "داعش" للقتال معه، غير أنّه وجد نفسه جنديًّا لدى قائد عراقي يتلقّى منه أوامره، مشيرًا إلى أنّه "اختلف مع قائده العراقي، خلال اجتماع ضمهم العام الماضي، ليجد نفسه محتجزًا"، لذلك أكدت الصحيفة أن الضباط العراقيين يشكلون هرم القيادة في التنظيم، بالإضافة إلى توليهم وضع التكتيكات العسكرية وخطط المعركة، و"هؤلاء لا يقاتلون، في حين يضعون المقاتلين الأجانب في المقدمة".

وقد أكّد حسن الحسن مؤلف كتاب "داعش... الإرهاب من الداخل"، أنّ

"القسوة الملحوظة في صفوف القادة العراقيين في التنظيم ناتجة عن القسوة التي كانوا يتدربون عليها أيام النظام السابق، وناتجة كذلك عن عملية تسريح الجيش العراقي لهم بعد الغزو الأمريكي عام 2003، وتهميش السنة عقب صعود الشيعة للحكم".

قسوة "داعش" التي لا تخفى على أي متابع، كان لها الأثر المباشر في سير الثورة السورية بتشويه سمعة الثورة، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من العوامل التي كان فيها لداعش السبب الرئيس في تراجع الثورة في إحدى مراحلها...

أثر "داعش" في الثورة السورية

ما أن تحولت الثورة السورية السلمية إلى العمل المسلح، حتى بدأت مجموعات مختلفة من المقاتلين تتوافد على البلاد، منهم دفاعًا عن "المسلمين" وغيرة على الدماء التي تسال في البلاد، ومنهم من جاء لأجندته الخاصة، سواء أكان من أصحاب الفكر الجهادي، أم مدفوعًا من مخابرات بلاده لتحقيق أهداف خاصة لدول إقليمية أو دولية، وهو ما جعل الأرض السورية ساحة لتصفية الحسابات الدولية، وساحة للعمل "الجهادي" لمن وجد في سورية بابًا مفتوحًا للجهاد بعد أن أغلق باب أفغانستان سابقًا، وتراجع العمل في العراق بعد انسحاب القوات الأمريكية، وسيطرة الحكومة المركزية على البلاد، من خلال الصحوات والميليشيات الأخرى...

وقد رحّب الثوار بادئ الأمر بهؤلاء المقاتلين الذين تجمّعوا في "جبهة النصرة لبلاد الشام" على اعتبار أنّ هؤلاء تركوا بلادهم وأموالهم وأولادهم في سبيل الدفاع

عن سورية وتحريرها من النظام الحالي، إلا أنّ شهر العسل بين الثوار والمقاتلين الأجانب لم يطل كثيرًا، حيث كان دخول تنظيم "داعش" على المعادلة السورية في نيسان 2013 تحريفًا واضحًا لمسار الثورة، أدى إلى تراجع الثوّار في العديد من الجبهات لحساب النظام السوري وتنظيم "داعش".

ويمكن اختصار أثر "داعش" في الثورة بالنقاط الآتية:

أولًا: داعش تكسب النظام السوري المصداقية

منذ أن انطلقت الثورة السورية في آذار/مارس 2011م حاول النظام السوري من خلال وسائل الإعلام وغيرها الترويج لفكرة محاربة الإرهاب، حيث حاول مرارًا لصق تهمة الإرهاب بمعارضيه السلميين في تلك المرحلة، إلا أنّ محاولات النظام أخفقت أمام صمود الثوار وعدم انجرارهم لرفع السلاح حينها، رغم كل ما قام به من فبركات ونشر للأكاذيب والاعترافات المضللة.

وقد حاول النظام بعدها مرارًا وتكرارًا جرّ الثوار نحو عسكرة الثورة، من خلال الاستفزازات، وزيادة مستوى العنف الموجه لعموم الشعب، في ظل تفاعل دولي خجول لا يرقى إلى مستوى الحدث، وحجم الإجرام في البلاد، وقد استطاع النظام أخيرًا الوصول إلى هدفه بعسكرة الثورة، ليثبت للعالم أنه يقوم بمقاومة مجموعة من الإرهابيين، لا مقاومة مجرد ثوار ومعارضين.

إلا أنّه وللمرة الثانية أخفق في إقناع العالم بروايته تلك، لأن الثوار تمكنوا من ضبط تصرفاتهم بصورة جيدة، فكانت عملياتهم محصورة في العسكريين التابعين للنظام، ولحلفائه من الميليشيات الطائفية الداعمة

منذ أن انطلقت الثورة السورية في آذار/مارس 2011م حاول النظام السوري من خلال وسائل الإعلام وغيرها الترويج لفكرة محاربة الإرهاب، حيث حاول مرارًا لصق تهمة الإرهاب بمعارضيه السلميين في تلك المرحلة

له، وهو ما أحبط محاولات النظام في تشويه صورة الثوار.

ومع مرور الوقت تحولت كتائب الثوار المسلحة إلى خطر حقيقي بل وجودي للنظام، وهو ما استدعى تغيير الإستراتيجية في التعامل مع الواقع الجديد، الذي أفقده أكثر من نصف مساحة سورية في الأشهر الأولى من عسكرة الثورة، ولم يتمكن من وقف الزحف الثوري حتى بمضاعفة أعداد الميليشيات التي تقاتل إلى جانبه، فسعى إلى إيجاد كيان "إرهابي" متفق عليه دوليًا ليكون عدوًا له في العلن...

فقام بإخراج مئات السجناء لديه ممن يحملون الفكر الجهادي، وألحق بهم العشرات من المخابرات السورية، الذين أتقنوا دور الجهاديين، فأطالوا اللحى، ولبسوا الأثواب القصيرة، واندسّوا بين "الجهاديين"؛ سعيًا

منهم لتشويه الثورة، وإقناع العالم برواية النظام عن الثوار.

وقد تلقفت "داعش" التي كان وجودها محصورًا في صحراء العراق، هؤلاء "الجهاديين" الجدد، ودفعت بهم في أتون الحرب السورية، ابتداء من خلال ما عرف بـ"جبهة النصرة" كما ذكرنا سابقًا، ثم ما لبث أن دخل التنظيم بذاته إلى سورية، ليعطي النظام الذريعة التي طالما بحث عنها في إلصاق تهمة الإرهاب بالعمل الثوري في البلاد...

ثانيًا: "داعش" تحوّل أنظار المجتمع الدوليّ عن إرهاب النظام

منذ أن تمكنت "داعش" من الدخول إلى سورية، وإثبات وجودها هناك، بدأت بمجموعة من الأعمال المريعة، التي وثّقوها بفيديوهات عالية الجودة، مخرجة بطريقة احترافية مثيرة، وعملوا على نشرها في وسائل التواصل الحديثة، وهو ما جعل العالم يتابع مشاهد قطع الرؤوس وحرق الأحياء بطريقة استفزازية مقززة، مكّنت الدول من أخذ قرار الحرب على هذا التنظيم بدون تردد، في الوقت الذي كان السوريون يستجدون هذا العالم؛ لتخليصهم من إجرام النظام السوري، الذي عمد في كل خطاباته إلى نفي أي عمل إجرامي له، حتى إنه نفى استخدام البراميل المتفجرة التي تلقى من طائرات لا يملكها غيره، وبالعشرات يوميًّا، على كل المناطق الثائرة... إضافة إلى سائر الأسلحة المحرمة دوليًّا..

منذ أن تمكنت "داعش" من الدخول إلى سورية، وإثبات وجودها هناك، بدأت بمجموعة من الأعمال المريعة، التي وثّقوها بفيديوهات عالية الجودة، مخرجة بطريقة احترافية مثيرة، وعملوا على نشرها في وسائل التواصل الحديثة

وهو ما جعل العالم ينسى أو يتناسى الأحداث اليومية للثورة السورية، وبات الإعلام العالمي لا يتحدث إلا عن هذه المجموعة وضرورة مقاومتها، وخطرها المفترض على دول العالم، ليتراجع الاهتمام العالمي بالقضية السورية إلى مراتب خلفية...

ثالثًا: "داعش" تشتت جُهود الثوار

لم يقف التنظيم بحرف الثورة عند حد تشويهها وحرف الأنظار العالمية عن القضية السورية، بل بدأ باستفزاز الثوار في المناطق المحررة، محاولًا السيطرة على تلك المناطق، وتحويلها إلى إمارات تابعة له، وتطبيق أحكامه على أهالي تلك المناطق، واستمر في استفزازاته بأسر وقتل العديد من الإعلاميين وكذلك الثوار، بحجج واهية، إلى أن وصل الأمر إلى المواجهة المباشرة بين التنظيم والجيش الحر، في الأسبوع الأول من عام 2014، وبذلك عمل التنظيم على تشتيت جهود الثوار واستنزاف قدراتهم التي كانت موجهة للنظام، ليتوزع جهد الثوار بين مواجهة النظام وداعش في آن معًا.

والأحداث اليومية من المواجهات بين الثوار وداعش تدل على مدى الخدمة التي قدمها التنظيم إلى النظام السوري، الذي بدوره ساعد التنظيم من خلال قصف الثوار بالطائرات عند وقوع المواجهات مع تنظيم "داعش"، وهذا مكنه من التقدم على حساب الثوار في مناطق عديدة في البلاد.

ويؤكد النشطاء أنّ تنظيم "داعش" لم يقاتل النظام قط، وحين يبدو أنّه يقاتله، فمن أجل التمويه، ودفع التهمة اللاصقة به، وهي أنّه جزء من النظام، ولا أدلّ على ذلك من احتلاله للمناطق المحررة، وأحيانًا إخلاء النظام بعض القواعد التي يحتلها لصالح "داعش".

رابعًا: "داعش" تسحب المقاتلين من الثوار

دفع انتشار نفوذ داعش في الأراضي السورية جزءًا من المقاتلين الذين يحملون فكرًا جهاديًّا في الجبهات الأخرى إلى الانشقاق عن تلك الجبهات والانضمام إلى التنظيم، وهو ما أحدث خللًا وإرباكًا في صفوف بعض الكتائب المرابطة على جبهات القتال مع النظام...

ومن جهة أخرى كانت الإمكانيات المادية الضخمة لدى "داعش"، والرواتب العالية التي توزعها على عناصرها، والأسلحة والذخائر التي تمتلكها- جاذبًا للعديد من المقاتلين من الفصائل الأخرى، التي لا تجد الطعام ولا السلاح...

إلا أنّ الثوار تمكنوا من تعويض آثار هذا الانشقاق سريعًا، بل ربما شكّل ذلك فرصة لهم لتنقية صفوفهم من أصحاب الفكر المتشدد، الذين كانوا سيصبحون عبئًا على تلك الكتائب في يوم من الأيام، ورغم تمكن الثوار من تعويض هذا الخلل سريعًا إلا أنّه أثّر بطريقة أو بأخرى في نفسية بقية المقاتلين، كادت تؤدي إلى تقدم النظام في مناطق الخلل تلك...

الخاتمة:

كان إدخال تنظيم "داعش" في المعادلة السورية، عملًا احترافيًّا يقوم به النظام السوري وحلفاؤه الإقليميون، فقد تمكّن النظام من خلال هذا التنظيم من إضعاف الثوار، وتشتيت جهودهم، علاوة على كسبه للوقت الذي يحتاجه لترتيب أوراقه، وإرهاق الشعب، محاولًا إفقاد الثوار والجيش الحر الحاضنة الشعبية التي كانت سببًا في استمراره إلى هذا اليوم..

ولا يُنكر متابع لأحداث القضية السورية الأثر السلبي الذي أحدثه دخول تنظيم "داعش" في الساحة، ولاسيّما ما أحدثه من تجاهل عالمي لمأساة الشعب على حساب الاهتمام بالحرب على الإرهاب...

إلا أنّ الثوار تمكنوا من امتصاص بعض تلك الآثار السلبية، وحولوها إلى نقاط قوة لديهم، من خلال تنقية صفوفهم من حملة الفكر المتشدد، بالإضافة إلى توحد بعض الفصائل التي شعرت بالخطر المباشر عليها،

في حال بقيت وحيدة في مواجهة النظام والتنظيم..

وإذا أضفنا إلى ذلك الرفض الشعبي للفكر المتطرف، واحتضان الشعب للفكر الإسلامي المعتدل، فإنّ فرص بقاء تنظيم "داعش" واستمراره في حكم المناطق التي يسيطر عليها تكاد تنعدم، فاعتماده على ترهيب الأهالي، وبث الرعب بينهم قد يمكنه من إخضاع بعض الناس ولكن لفترة من الزمن، إلا أنّ ذلك لن يدوم له، بناء على استقراء تجارب الشعوب في العالم...

2015-04-20

المصادر والمراجع:

• مركز الجزيرة للدراسات، (تنظيم الدولة الإسلامية: النشأة، التأثير، المستقبل).
• أبو عبدالله محمد المنصور، كتاب الدولة الإسلامية بين الحقيقة والوهم.
• د. محمد السيّد، كتاب داعش: دولة الوهم.
• عبد الباري عطوان، كتاب القاعدة: التنظيم السريّ.
• سعد العقيدي، الأسباب الخفية في انشقاق الجولاني عن دولة البغدادي...
• باتريك كوكبيرن، الحياة في ظل "داعش"، ترجمة: علاء الدين أبو زينة
• د. حذيفة عبدالله عزام، داعش والهلال الفارسي
• مراد مراد، "در شبيغل" تكشف وثائق لتنظيم "داعش" تبيّن علاقته بالنظام السوري.
• علاء يوسف، ضباط "بعث العراق" يقودون تنظيم الدولة
• سلسلة تغريدات تويتر للأستاذ الباحث مجاهد ديرانية.
• مركز أمية للبحوث والدراسات، (تقارير).
• موقع شبكة شام، (تقارير، مقالات).
• موقع أدباء الشام، (مقالات سياسية).

ISIS The Foreign Fighters In Syria And Their Impact On The Syrian Issue

ABDULLAH ZIZAN

The Syrian Revolution began mid-March 2011 as a peaceful revolution demanding freedom however it quickly turned into armed revolution under pressure from the regime that intended since the launch of the first demonstration to confront people with shooting murdering and torturing .

The Syrian regime has attempted to discredit the revolution by accusing it of terrorism however the regime failed to promote this propaganda as the revolutionaries used modern means of communication to refute these claims. This led the regime to move to more practical steps releasing hundreds of detainees who are described as having hard-line ideology to support Islamic State of Iraq and ash-Sham known as ISIS which was evidenced by documents obtained by the German newspaper Der Spiegel this year.

Those released individuals succeeded in communicating with their “Ideological brothers” in Iraq utilizing their expertise money arms and men at the beginning. They established what was known as "Al-Nusra Front" proclaiming Abu Muhammad al-Julani as its leader.

Adding this organization to the Syrian situation is considered a skillful act by the Syrian regime and its regional allies. This allowed the regime to weaken the revolutionaries distract their efforts gain the time it needs to breathe and weaken the people attempting to deprive the revolutionaries from the popular support that was the cause of their persistence until this moment. In addition this derails the world's attention towards the war on terrorism at the expense of the local tragedy.

However the revolutionaries were able to absorb some of the adverse effects of the emergence of this organization turning them into strengths

and if we add to this the popular rejection of radical ideology and the people’s embrace of moderate Islamic thought it would be concluded that the potential survival of ISIS and its persistence in governing the areas it controlled so far is very unlikely which indicates the lack of any future for the organization if its direct support stops.